ISSN 2519-9781

العمل التطوعي في المفهوم الإسلامي

الأستاذ الدكتور عليٍ الشيخ أحمد أبوبكر
رئيس جامعة مقديشو سابقا، وعضو مجلس أمنائها حاليًا

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى كشف الدلالات اللغوية للعمل التطوعي في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة والفقه، واتبع الباحث المنهج الوصفي الاستقرائي، وأظهرت نتائج الدراسة أن كلمة التطوع التي وردت في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة لها دلالات شرعية مرتبطة بالواجبات الدينية وبفروضها ارتباطًا عضويًا لا يمكن الفصل بينهما، ولسوء الحظ طمست معالمها منذ فترة طويلة من تاريخنا، وتشوهت معها الصورة الكلية للواجبات الكفائية من خلال ترسيخ تعريفات فقهية وضعت لتلبية ضرورات وحاجات غير التي نتعرض لها اليوم. وأوضحت الدراسة أيضا أن العمل التطوعي من أهم الأعمال الصالحة في الإسلام إذ تأصل بشكل واضح في حياة الرسل عليهم السلام ومنهم المصطفى عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

الكلمات المفتاحية: العمل التطوعي، المفهوم الإسلامي، الدلالات، القرآن الكريم، الحديث، الفقه.

Abstract

This study aims to identify the connotations of voluntary work in the light of the Quran, Sunnah (Hadith) and Fiqh. The researcher followed the inductive method.The results of the study showed that the word of the volunteering in the Holy Quran and in the Hadith has legitimate connotations related to religious duties and they are organically indistinguishable between them. Unfortunately, its features have long been overlooked from our history and distorted within the overall meaning of the duties of Kafiyyah through the doctrinal definitions developed to meet the necessities and needs other than we are exposed and facing today. The study also revealed that the volunteer work is one of the most important good deeds in Islam rooted in the life of the prophets as well as the companions of the Prophet Muhammad (PBUH), they practiced voluntary work in their lives.

Key Words: Voluntary Work, Islamic Concept,Connotations,Quran, Hadith, Fiqh.

مقدمـــة

إن المجتمعات الإسلامية تمر بمنعطف غير مسبوق في تاريخها، فهي تعاني قدرًا كبيرًا من التمزق الاجتماعي والانحطاط السياسي والانهيار الاقتصادي والتردي الأمني، كما تعاني من حروب طاحنة بين دولها التي وصل أغلبها إلى مستوى مربع الدول الفاشلة حسب التصنيف العالمي للدول، ولقد أنتجت تلك الأوضاع المزرية وضعًا مأساويًا من الناحية الخدماتية بمعناها الشامل، ومأساة إنسانية أقلها العوز والمرض والخوف والتهجير والنزوح القسري، فما الحل في مثل هذه الظروف؟

ففي حالة فشل الدول بالقيام بمسؤولياتها تجاه الشعوب فإن البديل الوحيد هو العمل الطوعي الضروري الذي يمكن أن تقوم به مؤسسات طوعية مستقلة عن الحكومة أو أفراد متطوعون يتحركون في الساحة تلقائيًّا بدون دوافع مادية أو انتظار قوة أخرى تدفعهم نحو العمل المنشود، وهذا أمر لا مناص منه في مثل هذه الحالات ولا بديل عنه.

والتاريخ البشري حافل بأدوار التطوع في إنقاذ الأمم من الضياع، أو في بناء المؤسسات الفاعلة والدول والحضارات، فالضرورات تجبرنا على العمل الدؤوب لحماية أنفسنا من المخاطر والمهددات من حولنا وما أكثرها، أو تصبح الدوافع لأعمالنا التطوعية نابعة من حب التغيير إلى الأفضل من أجل خلق ظروف معيشية راقية وتنمية مواردنا المتاحة وإيجاد وسائل جديدة للحياة من أجل الرفاهية والرخاء ومحاربة شظف العيش والعوز والمعاناة، فالعمل التطوعي مهم بل ضروري لا غناء عنه في أي عصر من العصور بسبب وجود الحاجة إلى توفير أنواع من المساعدات المستعجلة لمجموعات من بني الإنسان بأسباب مختلفة.

ولئن كانت التطورات الهائلة للبنية الهيكلية للدول في العصر الحديث تلبي بعض الاحتياجات لوجود أجهزة ومؤسسات ومرافق أسست لمهام خدماتية محددة مما يخفف المعاناة ويكسب المجتمع نوعًا من الطمأنينة والثقة والأمن، والاعتماد على الحكومات القائمة مما يعني أن أي تقصير أو ضعف في المهام تتحملها تلك الأجهزة في الدول المتقدمة

اقتصاديًا- فإن هذا الوضع لا ينطبق على أغلب الدول الإسلامية بل وغير الإسلامية في القارتين الأفريقية والآسوية مما يحتم عليها العمل التطوعي المجتمعي.

أما عندما تنهار مرافق الدولة وتختفي مسؤولياتها المتنوعة للحكومات، وتتحول إلى دولة فاشلة تعجز عن أداء الواجبات وتفقد قدراتها بصورة كاملة كما حدث للدولة الصومالية عام ١٩٩١ وكثير من الدول العربية والأفريقية مثلها بصورة أو بأخرى، فإن ذلك يعطينا الملامح والتصورات والقدرات والإمكانات للعمل التطوعي لأنه هو البديل الوحيد لإدارة الحياة وملء الفراغ الحاصل، لأنه يدلنا على الأمثلة الملموسة في بيئة ظلت فترة طويلة بلا حكومة أو بلا حكومة فاعلة وقادرة على تقديم الاحتياجات اللازمة لأبسط ضرورات الحياة ومقوماتها الأساسية.

وعليه يهدف الباحث من هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على حقيقة العمل التطوعي في المفهوم الإسلامي، وتصحيح المفهوم المشوه السائد لدى المسلمين الذي نشأ في عصور الانحطاط المتأخرة للمسلمين، والعودة إلى فهم المسلمين في العصر الأول، وتأصيل المفهوم، ومن ثمَّ إحياء الهمم وإطلاق المبادرات نحو الخير، وتغيير أوضاعنا نحو الأفضل، والمساهمة في استرجاع أمتنا لمكانتها اللائقة بين الأمم، وذلك من خلال دراسة الدلالات اللغوية لكلمة التطوع في إطار القرآن والسنة النبوية المطهرة وسيرة الرسل عليهم الصلاة والسلام وفهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

أولًا: الدلالات اللغوية للتطوع

أ- التطوع لغة:

تقول العرب: فلان طَوْعُ يديك، أي منقادٌ لك. وفرسٌ طَوْعُ العنان، إذا كانَ سلسًا[١]. طاع بمعنى لان وانقاد، وَقَالَ ابنُ سِيدَه: طاعَ يَطاعُ وأَطاعَ: لانَ وانْقادَ، وأنشدَ قول الشاعر:

سِنانُ معدٍ فِي الحُروبِ أَداتُها ... وَقد طاعَ منهُم سادَةٌ ودَعائمُ

وأنشد قول الشاعر:

وَقد قادَتْ فُؤَادِي فِي هَواها ... وطاعَ لَها الفؤادُ وَمَا عَصاها[٢]

طاع له بمعنى اتسع: وأَطاع النَّبْتُ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَى آكِلِهِ[٣]. وأَطاعَ لَهُ المَرْتَعُ إِذا اتَّسَعَ لَهُ المَرْتَعُ وأَمْكَنَه الرَّعْيُ؛ قَالَ الأَزهري: وَقَدْ يُقَالُ فِي هَذَا المَوْضِعِ طاعَ؛ قَالَ أَوس بْنُ حَجَرٍ:

كَأَنَّ جِيادَهُنَّ، بِرَعْنِ زُمٍّ ... جَرادٌ قَدْ أَطاعَ لَهُ الوَراقُ[٤]

أطاعه بمعنى لم يمتنع، أَطاعَه إطاعَةً وأَطاعَ لَهُ: لَمْ يَمتنِع، وَيُقَال: أَمرَه فأَطاعَه، بالأَلِفِ، طَاعَة لَا غيرُ. والتطوع بمعنى الزيادة والتبرع، صلاة التَّطَوُّعِ هي النّافلةُ، وكُلُّ مُتَنَفِّلِ خَيرٍ تَبَرُّعاً مُتَطَوِّعٌ، قَالَ الله جل ثناؤه: ﴿ ... فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ... ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة] والتَّطَوُّع: مَا تبرَّعَ بِهِ من ذاتِ نفسِه مِمّا لَا يلزَمُه فَرْضُه. والمطاوعة: الموافقة، وطاوَعَ مُطاوَعَةً: وافَقَ[٥].

والاستِطاعة: الإطاقَة، وربَّما قالوا استطاعَ يَسْطيعُ، ويقال: تطاوَعْ لهذا الأمر حتَّى تَسْتَطيعَهُ، وتَطَوَّعَ، أي تكلَّف اسْتِطاعتَهُ. والمُطَّوِّعَةُ: الذين يَتَطَوَّعونَ بالجهاد، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة]، وأصله المُتَطَوِّعينَ[٦]. ومِطْواعٌ بمعنى مُطيعٌ. وفلانٌ حسنُ الطواعِيةِ لك، أي حسن الطاعةِ لك. والجمع: طُوَّعٌ. ولسانُه لا يَطوعُ بكذا، أي لا يتابعه. ويقال: جاء فلان طائِعاً غير مُكْرَهٍ، والجمع: طُوَّعٌ. والطَّواعَةُ: اسمٌ مِن {طاوَعَهُ} كالطَّواعِيَةِ. ورَجُلٌ {مِطْواعَةٌ} كمِطْواعٍ، قَالَ المُتَنَخِّلُ الهُذَلِيُّ:

إِذا سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْواعَةً ... وَمهما وَكَلْتَ إِلَيْهِ كَفاهْ[٧]

وطوّعت: سهلت ورخصت﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة][٨].

ب- التطوع في اصطلاح الفقهاء:

التطوع: ما يأتي به الإنسان من الطاعة غير المفروضة عليه، وقال الأزهري: (التطوع ما تبرع به من ذات نفسه، مما لم يلزمه فرضه، فسمي تطوعًا لأن فاعله يفعله تبرعًا من غير أن يؤمر به حتمًا وتنفل: فعل النافلة، والنفل والنافلة: الزيادة، وترادفه السنة، والمندوب والمستحب والمرغوب فيه، وقال بعضهم: التطوع ما لم يثبت فيه نص بخصوصه، والسنة

ما واظب عليه النبي ﷺ والمستحب ما لم يواظب عليه، ولكنه فعله)[٩].(والتطوع تفعُّل من الطاعة، وهو في الشرع عبارة عن النفل)[١٠]، وعرف أبو عبد الله الحليمي التطوع بقوله:"وحدُّ التطوع ما يستحب فعله، ولا يكره الترخص بتركه"[١١].

ونكتفي بما يقوله الإمام أبو حامد الغزالي في تعريفه لأفعال المكلفين :" فَاعلم أَن الألفاظ فِي هَذَا الْفَنِّ خَمْسَةٌ الْوَاجِبُ، وَالْمَحْظُورُ، وَالْمَنْدُوبُ، وَالْمَكْرُوهُ، وَالْمُبَاحُ، فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْوَاجِبَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ إِذْ يُطْلِقُهُ الْمُتَكَلِّمُ فِي مُقَابَلَةِ الْمُمْتَنِعِ، وَيَقُولُ وُجُودُ الله تَعَالَى وَاجِبٌ وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ ...وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج]. وَيُقَالُ وَجَبَتْ الشَّمْسُ، وَلَهُ بِكُلِّ مَعْنًى عِبَارَةٌ، وَالْمَطْلُوبُ الْآنَ مُرَادُ الْفُقَهَاءِ حَيْثُ نِسْبَتُهَا إلَى خِطَابِ الشَّرْعِ فَقَطْ، فَنَقْسِمُ الْأَفْعَالَ بِالْإِضَافَةِ إلَى خِطَابِ الشَّرْعِ،أَنَّ الْأَفْعَالَ تَنْقَسِمُ إلَى مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ خِطَابُ الشَّرْعِ كَفِعْلِ الْمَجْنُونِ وَإِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ يَنْقَسِمُ إلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الإقْدَامِ عَلَيْهِ وَبَيْنَ الْإِحْجَامِ عَنْهُ وَيُسَمَّى مُبَاحًا وَإِلَى مَا تَرَجَّحَ فِعْلُهُ عَلَى تَرْكِهِ وَإِلَى مَا تَرَجَّحَ تَرْكُهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَالَّذِي تَرَجَّحَ فِعْلُهُ عَلَى تَرْكِهِ يَنْقَسِمُ إلَى مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ لَا عِقَابَ عَلَى تَرْكِهِ وَيُسَمَّى مَنْدُوبًا وَإِلَى مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِهِ وَيُسَمَّى وَاجِبًا. وَأَمَّا الْمُرَجَّحُ تَرْكُهُ فَيَنْقَسِمُ إلَى مَا أَشْعَرَ بِأَنَّهُ لَا عِقَابَ عَلَى فِعْلِهِ وَيُسَمَّى مَكْرُوهًا، وَإِلَى مَا أَشْعَرَ بِعِقَابٍ فِي الْآخِرَةِ عَلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ الْمُسَمَّى مَحْظُورًا وَحَرَامًا وَمَعْصِيَةً"[١٢].

فما دام المتطوع هو الذي يفعل الشيء تبرعاً من نفسه، ويقوم بكل ما يفعله باختياره المحض فإن فقهاءنا الأفاضل وضعوا خانة خارجة عن الواجبات، فالفعل يأمل منه الأجر والمثوبة، أما الترك فلا عقاب على تاركه، فإن التطوع داخل في دائرة النفل ضمن التقسيم الفقهي لأفعال المكلفين والتي هي خمسة أقسام. والسبب معروف ويأتي من ناحيتين، **الأولى**: يعتمد الفقهاء على المعاني اللغوية لكلمة التطوع، حيث يدل بعض معاني التطوع على التبرع والزيادة عن الحد المطلوب كما سبق ذكره في الدلالات اللغوية للتطوع. **والثانية**: هي ورود كلمة التطوع في بعض الأحاديث النبوية بمعنى النفل، وأوضحها في هذا المعنى هو حديث الأعرابي المشهور الذي أورده النبي ﷺ كلمة التطوع مرارًا مقابل أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين.

وانطلاقًا من هذا فإن الفقهاء فسروا كلمة التطوع ووضعوها في خانة الأعمال غير الواجبة، مع أن الحديث لم يورد غير أركان الإسلام، وهي الصلوات الخمسة، وصوم شهر رمضان، وأداء الزكاة، وحج بيت الله الحرام. ومن هنا فعند تقسيمهم الأحكام الفقهية التي تتعلق بالمكلفين فإن النوافل قسم من أقسامها الخمسة وهو مع الواجبات من حيث الأوامر الربانية والنبوية ولكنه لا يعاقب تاركه، ولم يتجاوز الفقهاء هذا الحد ولم يتطرقوا إلى أي معان أخرى تحمل التطوع خارج دائرة النوافل، وهو أمر يستحق التمعن والدراسة في واقعنا الاجتماعي والسياسي والثقافي، وتجاوز التعريفات الفقهية المختزلة التي وضعت في ظروف زمنية مختلفة للواقع الذي نعيشه، والعودة إلى المصادر الأصلية من القرآن الكريم والسنة المطهرة وفهم الصحابة.

ثانيًا: كلمة التطوع في القرآن الكريم

بما أن التطوّع هو القطب الذي تدور حوله بقية الكلمات في عنوان هذا البحث، والهدف الأساس من ذلك هو معرفة دور العمل التطوعي في الإسلام وتحقيق مصالح مهمة من خلاله، فإنه أصبح النظر لازمًا إلى مفردة "التطوع" في القرآن الكريم، وماذا قال المفسرون عنه للوقوف على التفسيرات المختلفة حوله بإيجاز.

أ- نماذج من أقوال المفسرين للتطوع

لقد وردت عبارة (التطوع) في القرآن الكريم مرتين اثنتين فقط لا غير، والمرتان وردتا في سورة البقرة وحدها: أما المرة الأولى فيقول الله جل ثناؤه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة]. وفي المرة الثانية يقول الله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة].

للوقوف على كلمة التطوع في القرآن الكريم والنظر إلى مقصودها بتمعن أحببت أن أقلب الصفحات في بعض تفاسير القرآن الكريم لمعرفة أقوالهم حول التطوع ومركزه في

دائرة الأحكام الفقهية من ناحية، والمقاصدية من ناحية أخرى، وأمامك طائفة من علمائنا المفسرين. يقول عز الدين بن عبد السلام –رحمه الله تعالى– في تفسير التطوع في هذه الآية: "التطوع هو السعي بينهما عند من لم يوجبه، أو من تطوع بالزيادة على الواجب، أو من تطوع بالحج والعمرة بعد أدائهما"(١٣).

ويقول فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى:"قال أَبُو مُسْلِمٍ: تَطَوَّعَ تَفَعَّلَ مِنَ الطَّاعَةِ وَسَوَاءٌ قَوْلُ الْقَائِلِ: طَاعَ وَتَطَوَّعَ، وحَال وَتَحَوَّلَ، وَقَالَ وَتَقَوَّلَ، وَطَافَ وَتَطَوَّفَ، وَتَفَعَّلَ بِمَعْنَى فَعَلَ كَثِيرًا، وَالطَّوْعُ هُوَ الِانْقِيَادُ، وَالطَّوْعُ مَا تَرْغَبُ بِهِ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ مِمَّا لَا يَجِبُ عَلَيْكَ." أما علاقة ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ بالسعي بين الصفاء والمروة فقال"الَّذِيْنَ قَالُوا: السَّعْيُ وَاجِبٌ، فَسَّرُوا هَذَا التَّطَوُّعَ بِالسَّعْيِ الزَّائِدِ عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالسَّعْيِ فِي الْحَجَّةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْمُرَادُ مِنْهُ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ وَهَذَا أَوْلَى لِأَنَّهُ أَوْفَقُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ"(١٤).

أما الأستاذ رشيد رضا فيقول رحمه الله تعالى: "﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ فِي هَذَا التَّطَوُّفِ وَغَيْرِهِ أَوْ كَرَّرَ الْحَجَّ أَوِ الْعُمْرَةَ فَزَادَ عَلَى الْفَرِيضَةِ ؛ أَيْ: تَحَمَّلَهُ طَوْعًا – كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ – فَإِنَّ التَّطَوُّعَ فِي اللُّغَةِ: الْإِتْيَانُ بِمَا فِي الطَّوْعِ أَوْ بِالطَّاعَةِ أَوْ تَكَلُّفُهَا أَوِ الْإِكْثَارُ مِنْهَا، وَأُطْلِقَ عَلَى التَّبَرُّعِ بِالْخَيْرِ؛ لِأَنَّهُ طَوْعٌ لَا كُرْهَ وَلَا إِكْرَاهَ فِيهِ، وَعَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَةِ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْوَاجِبِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ الْأَعْرَابِيِّ: (إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ) أَيْ تَزِيدَ عَلَى الْفَرِيضَةِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ:فَإِنَّ الله يُثِيبُهُ، لِأَنَّهُ شَاكِرٌ يَجْزِي عَلَى الْإِحْسَانِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَزَاءَ"(١٥).

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير التطوع في الآية:"ثم يختم الآية بتحسين التطوع بالخير إطلاقاً﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ..فيُلْمِحُ إلى أن هذا الطواف من الخير، وبذلك ينفي من النفوس كل حرج، ويطيب القلوب بهذه الشعائر، ويطمئنها على أن الله يعدها خيراً، ويجازي عليها بالخير. وهو يعلم ما تنطوي عليه القلوب من نية وشعور. ولا بد أن نقف لحظة أمام ذلك التعبير الموحي: «فَإِنَّ الله شاكِرٌ ... » .. إن المعنى المقصود أن الله يرضى عن ذلك الخير ويثيب عليه. ولكن كلمة «شاكِرٌ» تلقي ظلالاً ندية

وراء هذا المعنى المجرد. تلقي ظلال الرضى الكامل، حتى لكأنه الشكر من الرب للعبد. ومن ثم توحي بالأدب الواجب من العبد مع الرب. فإذا كان الرب يشكر لعبده الخير، فماذا يصنع العبد ليوفي الرب حقه من الشكر والحمد؟؟ تلك ظلال التعبير القرآني التي تلمس الحس بكل ما فيها من الندى والرفق والجمال"[١٦].

يقول محمد أبوزهرة رحمه الله في تفسير الآية: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ "التطوع المبالغة في الطاعة فيما أمر الله تعالى به من فرض وواجب ومندوب، فهي المبالغة في أصل الطاعة، وإطلاقها على النفل غير المفروض والمندوبات ونحو ذلك هو من قبيل الاصطلاح الفقهي باعتبار أن النوافل والمندوبات مكملات للفرائض التي هي أصل الطاعات، والخير كل ما يكون فيه نفع للناس، وأداء لما أمر الله، وقيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية والدينية، ووصف طاعات الله أو المبالغة في الأداء بأنها خير؛ لأنها في ذاتها خير، ولا يكون ما يأمر الله تعالى به إلا خيرًا خالصًا، ونافعًا خالصًا، فكل أمر من الله تعالى فهو خير نافع لَا ينفع سواه". وفي تعليقه على هذه الجزئية من الآية يقول: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ "وهذه الجملة السامية هي دالة على الجزاء، متضمنة له؛ لأن تقدير الجواب فله أجر يكافئ ما فعل؛ لأن الله شاكر عليم، أي مُجازٍ جزاءً حسنًا على ما فعل؛ لأن الله شاكر، والتعبير بالشكر في هذا، وهو أعظم من أن يشكر عبدًا له فالكل منه وإليه، وقد وصف نفسه بأنه غفور شكور، فكيف يشكر المنعم من أنعم عليه؟! وكل ما يقدم العبد من طاعات هو شكر للمنعم جل جلاله، وشكر المنعم واجب بالعقل والنقل، فكيف يكون الله شاكرًا لأنعمه؛ ولكن عبر بذلك، تكميلا لنعمه وتفضله أولًا، كما يشكر من يقوم بالواجب تفضلًا، ولتحريض العبد على كمال الطاعة ثانيًا، ولتعليم العبد شكر النعم ثالثًا، ولإثبات رضوان الله تعالى رضوانًا كاملًا، فإن الشكر زيادة في الرضوان، والرضوان الجزاء".

وقد وصف الله -سبحانه وتعالى- نفسه مع الشكر الدال على الرضا بقوله: "عليم" أي وصف نفسه بالعلم؛ للدلالة على أنه عالم بمن يقوم بالطاعات فيجازيه، ومن يعمل بالمعصية، فيجزيه بالسوء سوءًا، فهو إشعار للطائع بأنه يعمل تحت رعاية الله تعالى، تحت سمعه وبصره، وهو القائم بكل ما في الوجود، وهو القادر على مكافأة كل بما يعمل إن

خيرًا فخير وإن شرًّا فشر[١٧]. يقول أبو القاسم الغرناطي رحمه الله تعالى: "وَمَنْ تَطَوَّعَ عاما في أفعال البر، وخاصة في الوجوب من السنة أو معنى التطوّع بحج بعد حج الفريضة"[١٨].

ووَرد في تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى لهذه الآية: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ قِيلَ:" زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ ثَامِنَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَقِيلَ: يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةِ تَطَوُّعٍ، أَوْ عُمْرَةِ تَطَوُّعٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ تَطَوَّعَ خَيْرًا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ. حَكَى ذَلِكَ [فَخْرُ الدِّينِ] الرَّازِيُّ، وَعَزَى الثَّالِثَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، والله أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ: يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ {عَلِيمٌ} بِقَدْرِ الْجَزَاءِ فَلَا يَبْخَسُ أَحَدًا ثَوَابَهُ و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء][١٩].

يقول أبو حيان رحمه الله في تفسير الآية :﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ "مَنْ زَادَ عَلَى مِقْدَارِ الْفِدْيَةِ فِي الطَّعَامِ لِلْمِسْكِينِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعَلَى عَدَدِ مَنْ يَلْزَمُهُ إِطْعَامُهُ، فَيُطْعِمُ مِسْكِينَيْنِ فَصَاعِدًا قَالَهُ ابن عباس، وطاووس، وَعَطَاءٌ، وَالسُّدِّيُّ. أَوْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِطْعَامِ وَالصَّوْمِ، قَالَهُ ابْنُ شِهَابٍ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْوَاجِبِ، إِذَا كَانَ يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ، خَيْرٌ مِنَ الِاقْتِصَارِ عَلَيْهِ، وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْعُمُومُ فِي كُلِّ تَطَوُّعٍ بِخَيْرٍ"[٢٠]. ويقول السيوطي: "﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْقَدْر الْمَذْكُور فِي الْفِدْيَة فَهُوَ أَيْ التَّطَوُّع خَيْر لَهُ ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الْإِفْطَار وَالْفِدْيَة ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّهُ خَيْر لَكُمْ فَافْعَلُوهُ"[٢١]. ويقول عبد الكريم الخطيب : ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ "ترغيب فى عمل البر والاستزادة منه، فإذا جعل الله سبحانه الفدية الواجبة هى طعام مسكين، فإنما ذلك رحمة بعباده ورفقًا بالمعسرين منهم، وتمكينًا للفقراء أن يلحقوا بالأغنياء، بتقديم هذا القربان إلى الله، وبالمشاركة فى البر والمواساة، ثم إن باب التطوع متسع مع هذا لمن تسخو نفسه بالبذل، وتسمح يده بالعطاء: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ "[٢٢].

ب- اقتران التطوع بالخير في القرآن الكريم

وردت كلمة "خيرًا" في الآيتين هكذا: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ و﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ حيث إن كلمة التطوع جاءت مقرونة بكلمة "خيرًا "في الآيتين، وأيا كانت اختلافات الفقهاء والمفسرين في حكم التطوع في الآيتين إلا أن كلمة "خيرًا" بعد كلمة تطوع تحمل معاني ودلالات ذات مغزى، وبُعدًا لا يمكن التجاهل عنه أو التغاضي عن العلاقة المتينة بين التطوع والخير في القرآن الكريم ، لأن الخير هو جماع أمر الإسلام كله، ويتناول كافة الجوانب الإيجابية والفضائل وكل المأمورات ابتداءً من الإيمان بالله ومرورًا بأركان الإسلام والعبادات الواجبة وسننها، والمعاملات التي هي أعمدة حياتنا، كما أن الخير يرد كثيرًا في معرض محاربة المنكرات والفواحش وتقبيح المظالم الاجتماعية بجانب ترغيب الفضائل بأشكالها، والحسنات بأنواعها، بالإضافة إلى هذا فإن كلمة الخير تشجع الحياة الكريمة وتدعو إلى الفضائل والآداب العامة والتعاون والتساند بين بني البشر كافة.

وإذا تتبعنا تكرار كلمة (الخير) وصيغها المختلفة والمفعمة بالعذوبة وسعة الأهداف والغايات، سواء كانت معرفة أو نكرة، مفردة أو جمعًا، وأيا كان موقعها من الإعراب فقد وردت في القرآن الكريم ما لا يقل عن " ١٧٧ "مرة، وهي تدور حول الطاعة والاستقامة والقيم العليا والمعاملات الراقية والكرم وتشجيع كل الخصال الحميدة في مختلف مناحي الحياة بدون أن تفرق بين أنواع الواجبات" العينية والكفائية" أو بين الواجبات والنوافل، كما لا تفرق بين المحظورات والمكروهات. وهنا نجد صورة تقريبية توضح لنا كيفية ورود صيغها في القرآن الكريم لتسهل مراجعتها عند الرغبة في بحثها وهي كالتالي: خيرٌ وخيرٍ بالضم والجر معًا وردت في القرآن الكريم حوالي ١٠٩ مرات، وخيرًا ٣٥ مرة، والخير٩ مرات، والخيرات ٨ مرات، وبخير ٦ مرات، وخير ٣ مرات، وبالخير مرتين، وللخير مرتين، وخيرات مرة واحدة، والخير مرة واحدة، وبالخيرات مرة واحدة. ويصل مجموع هذه المرات حوالي ١٧٧ مرة.

إن التطوع المقترن بالخير يكتنف جوانب الخير كلها ولا يخضع للتعريفات الفقهية وضوابطها المقيدة، كما أن صفة الخيرية وردت في القرآن الكريم لحث المكلفين على التزام القيم العليا والفضائل لهذا الدين الحنيف، والابتعاد عن المنكرات والرذائل، وتقبيح الشر كله صغيره وكبيره، وذم البخل والنفاق وإنكار كل صفة ذميمة في مختلف مناحي الحياة، فمجيء التطوع بصحبة الخير في الحديث عن ركنين من أركان الإسلام إشارة قوية إلى المعنى الحقيقي للتطوع والذي لا غناء عنه في أي فرد أو عائلة، أو مؤسسة، أو مجتمع، أو دولة من الدول.

ثالثاً: دلالات كلمة التطوع في الأحاديث النبوية الشريفة

ثبت في صحيح مسلم: (أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فصار يتكلم وهو رجل كبير السن، يقول الصحابي: نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن فرائض الإسلام وشرائعه، فقال له رسول الله ﷺ: (تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولا تشرك به شيئاً –وصار يمسك بأصابعه– ثم قال: أخبرني عن شرائع الإسلام؟ فقال: خمس صلوات في كل يوم وليلة، فأمسك بإصبعه فقال: هل علي غيرها شيء؟ قال: لا إلا أن تطوع – يعني: تأتي بشيء من عند نفسك تطوعاً، ثم قال: تزكي المال –تؤدي الزكاة– فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع.ثم قال: فماذا؟ فذكر الصوم –صوم شهر رمضان– فقال: هل علي غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع. ثم قال: وماذا بعد ذلك؟ فقال: تحج البيت؟ فقال: وهل علي غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع فأمسك بأصابعه وقال: والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها شيئاً ثم ولى، فقال رسول الله ﷺ: إن صدق دخل الجنة) [٢٣].

لقد ذكر الحديث جانبًا من الفروض العينية للسائل وأوضح له الرسول ﷺ أركان الإسلام بصورة أخص، وهي مطلوبة من كل مسلم إقرارًا باللسان، وتصديقًا بالقلب، وعملًا بالجوارح، وهي خمسة أركان يسهل حفظها لكل إنسان جاهلًا كان أو متعلمًا، كما يمكن تطبيقها عمليًّا لكافة البالغين غير المعذورين من الناحية الشرعية، لقد أوجز له الرسول ﷺ وأبلغه خير بلاغ لأن الرسول ﷺ قد أوتي جوامع الكلم. أما السائل القادم من نجد فكان حكيمًا محددًا أسئلته الهامة التي سافر من أجلها، وقطع مئات الكيلومترات

حتى وقف أمام رسول الله ﷺ فكان يضع النقاط على الحروف، يحتاط لأمره كثيرًا من البداية والنهاية مكررًا هذه الجملة " فهل علي غيرها؟" تكررت مع كل جواب من رسول الله ﷺ. حتى يتأكد ما عليه من الواجبات الدينية ليرجع إلى بلاده مطمئنًا وليبلغ من وراءه هذا الخير.

ولقد تكررت من الحبيب رسول الله ﷺ هذه العبارة الرائعة في إجابته عن كل ركن والتي جمعت بين النفي والإثبات في آن واحد وهي: {لا، إلا أن تطوّع}، فالشق الأول من الجواب هو: {لا} والتي تعني نفي وجود فرض زائد عما ذكره ﷺ في كل ركن من أركان الإسلام الخمسة. وهي كما تلاحظ فهم السائل واستوعب وعزم على تحملها وتطبيقها وعملها كما سمعها، وأقر بذلك، أمام رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، فأعطى السائل أجوبة تشمل أركان الإسلام بدون الدخول في تفاصيل كل ركن من أركانها، أو عرض واجبات أخرى على السائل، ولم يكن الموقف يتحمل تفاصيل أكثر من ذلك ، ومن قويت في نفسه وسهل عليه تطبيق هذه الأركان فما سواها أيسر وأسهل من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن هذه هي الأعمدة التي أراد الله جل ثناؤه أن يقام عليها بقية الشرائع، فإذا استقامت وسلمت من الضعف والخلل والاعوجاج يستقيم البنيان ويبنى عليها كل ما يستلزم من أمره.

أما الشق الثاني من الجواب فهو: {إلا أن تطوّع} نرى الرسول ﷺ ترك الباب مفتوحًا أمام السائل والسامعين في المجلس حيث لم يكتف بكلمة {لا}ولو مرة واحدة، بل في كل مرة كان يعطف عليها ويردف معها بهذه الجملة:{إلا أن تطوع} وكان هذا بمثابة إشعار لهم بأن الإسلام ليس منحصرًا في الأركان، ولكنه بنيان كامل فيه الأركان وما يشبه الطوابق والأرفف والجدران والأبواب والشبابيك والسور والأثاث وغير ذلك، مما يتطلب أي بنيان مادي في حياتنا، ولله المثل الأعلى، فمنذ نبي الله آدم ﷺ إلى خاتم النبيين كان بناء الإسلام متواصلًا حتى بعث الرسول ﷺ فأكمل الله الإسلام ببعثة خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ فهو دين شامل يقوم على الأركان واكتملت جوانبه الأخرى. وفي "صحيح البخاري" عن أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: "مثلي ومثل الأنبياء من

قبلي؛ كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلّا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين" [٢٤].

فما دامت شرائع الإسلام شاملة شمول الحياة بمختلف المجالات، والواجبات متنوعة ومتعددة، والتوجيهات الربانية والنبوية متشعبة، ولا نستطيع أداءها كلها كما ينبغى في أعمارنا القصيرة، كما يشير الحديث: "إذا أمرتكم أمرًا فأتوا منه ما استطعتم" بل تفنى الأجيال وتبقى كثير من تلك التوجيهات غير مطبقة كما ينبغي في الساحة العملية؛ فإن التركيز على الأركان الخمسة كفروض عينية على كل مسلم بالغ غير معذور كان التدرج ضرورة للبناء في بداية الإسلام وضمانًا للوحدة الشعورية والعملية لكافة المسلمين[٢٥].

والتطوع في الحديث إذا كان متعلقًا بالأركان الخمسة فيعني التطوع هنا نوافلها مثل نوافل الصلوات الخمسة ونوافل الصوم وصدقة التطوع والحج غير الواجب، أما إذا كان الأمر متعلقًا بشرائع الإسلام كلها فإن فرائضه العينية والكفائية والسنن المؤكدة غير منحصرة بأركان الإسلام التي قدم أجوبتها الرسول ﷺ إلى السائل في هذا الحديث عن أسئلته، إذاً لا يمكن أن يكون سياق الحديث أن جميع الواجبات على هذا الرجل المكلف لا تتعدى أركان الإسلام، والاحتمال الباقي هو أن التطوع هنا يعني بقية الأحكام التي وردت أو سترد مشروعيتها في الإسلام مثل أنواع الفرائض والنوافل سوى الفرائض التي أوضحها الرسول ﷺ في الحديث الذي نحن بصدده.

وحتى تكون الصورة أوضح نطَّلع على عدد من الأحاديث النبوية الأخرى في هذا المضمار: روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، إذ دخل رجل على جمل، ثم أناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: "قد أجبتك" فقال الرجل للنبي إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك، قال: "سل عما بدا لك" فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: "اللهم نعم" قال: أنشدك بالله الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: "اللهم نعم" قال: أنشدك بالله،

الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: "اللهم نعم" قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ "اللهم نعم" قال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر)[٢٦].

وجاءت رواية مسلم هكذا: (قال أنس رضي الله عنه: نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، فقال: "صدق" قال: فمن خلق السماء؟ قال: "الله" قال فمن خلق الأرض؟ قال: "الله" قال. فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل" قال: "الله" قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، الله أرسلك؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك، الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: "صدق" قال: فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا؟ قال: "نعم" قال: ثم ولي، وقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: "لئن صدق ليدخلن الجنة")[٢٧].

هذه الروايات يفسر بعضها البعض الآخر، والتركيز واضح ومنصب على أركان الإسلام والتي كان البدو الراغبون في دخول الإسلام وقتها في أمس الحاجة إليها، بكونها أركان هذا الدين والفروض العينية على كل مكلف غير معذور، وبكون حفظها يسهل عليهم، وكذلك إبلاغها إلى من وراءهم من قبائلهم، فورود هذه الجمل مثل: [والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن] ومثل: [والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها شيئا]، والتي جاءت ضمن الأحاديث النبوية الصحيحة تعبر عن مدى قوة إيمان هؤلاء واستعدادهم الكامل للعمل بما علموا من رسول الله ﷺ وإعلان الالتزام بأركان هذا الدين أمام النبي ﷺ، وليس معنى الأحاديث أنه لا يجب عليهم غير ذلك مستقبلا، فكلما

تعلموا وتلقوا مزيدًا من أحكام هذا الدين فهم مطالبون بالعمل كغيرهم من المسلمين، ولأن أركان هذا الدين تسبق على بقية الأحكام من حيث التعليم والتلقين لأهميتها القصوى من ناحية، وبكونها تتناسب مع المبتدئين الجدد على دخول الإسلام.

فبينما الفقهاء لا يختلفون حول تعريف التطوع عند التعرض على تقسيم الأحكام من الناحية النظرية إلى خمسة، إلى واجب ومندوب ومحرم ومكروه ومباح، وعندها يدخل التطوع في قسم المندوب، ولكن الأمور تختلف عند الدخول في تفاصيل الأحكام الاجتهادية فنجد تداخلا بين التطوع الذي هو من النوافل فقهيا وبين الفروض الكفائية من حيث التوجيهات القرآنية والأحاديث النبوية التي لا تفرق بين النوافل والواجبات الكفائية في أغلب نصوصها، فالأوامر الصريحة والتوجيهات العامة والتلميحات العديدة والصور المجازية هي لم تميز بين الأمرين ولم توضح بين نافلة وتطوع وبين الواجب الكفائي، وكلها تدعو وتحث على العمل والتطبيق والالتزام بما تدعو إليه، وكثيرًا ما تذكر تلك النصوص تعقيبات ومبشرات تذكرنا بعواقب الأمور والفوز والفلاح في الدارين، وهو تحقيق المصالح العليا للمؤمنين تبعًا لذلك.

رابعًا: التطوع في حياة الرسل والأنبياء

لقد أرسل الله الرسل والأنبياء إلى هداية البشر قاطبة ليعتصموا بحبل الله المتين، كما أرسلهم إلى البشرية في هذا الكوكب من أجل تجنيبهم مزالق الجرائم والموبقات، وخلق أجواء من السعادة والتقدم، وإنشاء قاعدة ثابتة تحتكم إليها الحياة يقول الله جل ثناؤه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]. وجاء الأنبياء والرسل للتغيير الجوهري في النفس البشرية ابتداءً من المعتقدات والأفكار وانتهاء بالنظرة الكلية إلى مجمل جوانب الحياة وفق ما جاءت به النصوص ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام].

في هذا المحور نتكلم عن موضوع الأنبياء عليهم السلام الذين بعثهم الله لحمل دين الله إلى الناس في العصور المختلفة ودورهم في القيادة البشرية من خلال نقل رسالة رب

العالمين إلى البشر عبر بوابة العمل التطوعي الذي ليس له في المقابل جوائز مالية تدفع إليهم بسبب تلك الجهود الجبارة التي يستميتون من أجلها.

أ- مفهوم العمل التطوعي في دعوة الرسل:

إن الأنبياء والرسل عليهم السلام هم السادة في القافلة البشرية بإرادة الله سبحانه، وقد شرّفهم ورفع مقامهم فوق جميع بني البشر، وعلى هذا الأساس فالأنبياء مؤهلون لهذا العمل التطوعي، ولذلك لم يكونوا يطلبون أبدا أي مساعدة مادية من الآخرين في حياتهم الخاصة بجانب عظمة أخلاقهم وبقية صفات الكمال والرقي، إنهم متزودون بكنز القناعة والرضى بما قسم الله لهم من أرزاق، معتمدين ومتوكلين على الله سبحانه.

وقصة كليم الله موسى عليه السلام معروفة مشهورة، وهي تعبر بوضوح عن الشرف المروم المتمثل برعاية الأسرة الكريمة والعناية بأموالها والذي استغرق ثمانية أعوام على الأقل كما تخبرنا الآية الآتية عن الحوار الهادف بين الرجلين شعيب وموسى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨ ﴾ [القصص]، ومن المعلوم أن هذا الخير كانت بدايته من خلال العمل التطوعي الذي بادر به موسى عليه السلام عندما انكشفت له حالة بنتي شعيب وعجزهما عن سقي الغنم، وأنه ليس أمامهما إلا الانتظار، فأبت نفسه إلا أن يتحرك بسرعة مذهلة وتولى عملية السقاية.

إننا نوقن جميعا أن الأنبياء من البشر، وأنهم مثل أصناف البشر في احتياجاتهم الضرورية، ولكنهم لم يكونوا مأسورين بهموم أنفسهم، ولم يكونوا موظفين يتقاضون الرواتب والأجور من أثرياء مجتمعاتهم كما جرت العادة في مسيرة الحياة لدى البشر، أما الأنبياء فإنهم يسهرون لخدمة أمتهم، ولديهم الجاهزية الكاملة للمواظبة بدون كلل، والشعار المشترك بينهم في مختلف الحقب الزمنية هو القول: ﴿ ...لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ...٢٣ ﴾ [الشورى] وهمهم التأكد من إبلاغ الرسالة إلى المبلغين، كما قال رسول الله ﷺ: "اللهم هل

بلغت اللهم فاشهد". إنهم موظفون ولكن عند من لديه مفاتيح الأرزاق كلها، فليسوا بحاجة إلى غيره.

وانطلاقا من القيم العليا للعمل التطوعي لدى الأنبياء والرسل المبني على الاستغناء عما في أيدي الناس من الإمكانات المادية فإن القرآن الكريم يتحدث عن هذا الموضوع باستفاضة وعمق كبيرين، وهو يستعمل ويورد هذه الجملة أو ما في معناها: ﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ بلسان الأنبياء في تأكيد هذا المعنى، كما يستعمل كلمة " المال" للتدليل على عدم أخذ أي عرض من أعراض الدنيا مقابل الجهد الكبير الذي يقومون به لإبلاغ هذه الرسالة إلى الناس.

ب– مشاهد من رسل الله تجسد العمل التطوعي .

هناك عدد من الأنبياء وردت على ألسنتهم عبارات عدم أخذ الأجور من البشر مقابل الجهد الذي يقومون به لإبلاغ أوامر الله ونواهيه، بل جهودهم لله سبحانه وهو الذي ينتظرون منه الأجر والمثوبة، وأذكر نماذج منهم، لأنهم هم المعالم في تقوية الفضائل والقيم وتنميتها، وفي تحجيم المفاسد وتقليل شرورها.

ولنأخذ نموذجًا لنبي الله نوح عليه السلام باعتباره أول الرسل عليهم السلام، لقد مكث عند قومه طويلًا، فواجه صنوف المتاعب والخصام الظالم في تلك الملحمة التاريخية والتي تربو عشرة قرون متواصلة، يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤ ﴾ [العنكبوت]. ففي **قصة رسول الله نوح** عليه السلام؛ وفي الأجواء المليئة بالتحديات والجهود المضنية من نبي الله نوح عليه السلام كان سيد الموقف بينه وبين قومه، وفي المقابل عناد وفجور في الخصومة وسخرية لاذعة لا تنقطع، يقول الله جل ثناؤه على لسان نبيه نوح: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ ﴾ [يونس].

وفي مشهد آخر لرسول الله هود عليه السلام: يقول الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ

أَجۡرًا إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود]، ترد هنا معاني الربط بين توحيد الله وترك عبادة الأوثان وبين عدم أخذ الأجرة والتعويضات المادية من قومه، ويبدو أن هذا الترابط بين الجانبين ضرورة ملحة حتى لا يتسرب إلى النفوس أي شكوك أو ريبة تقف حجر عثرة أمام رسالة الأنبياء والرسل. فالتطوع والرغبة الصادقة للقيام بمثل هذه الأعمال النبيلة في المجتمعات البشرية هي بمثابة المفتاح السحري للتغيير الإيجابي والقفزة النوعية للتقدم إلى الأمام، فالأنبياء هم النموذج المثالي لأنصارهم وأتباع دياناتهم.

مشاهد من قصة نبي الله محمد ﷺ: المشهد الأول من قصة رسول الله محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف]. [وما تسأل، يا محمد، هؤلاء الذين ينكرون نبوتك، ويمتنعون من تصديقك والإقرار بما جئتهم به من عند ربك، على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان وطاعةِ الرحمن {مِنۡ أَجۡرٍ } ، يعني: من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله. يقول: ما تسألهم على ذلك ثوابًا، فيقولوا لك: إنما تريد بدعائك إيّانا إلى اتباعك لننزلَ لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك. وإذ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقًّا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إلى ما تدعوهم إليه، اتباعًا منك لأمر ربك، ونصيحةً منك لهم، وأن لا يستغشُّوك)[٢٨].

المشهد الثاني من قصة رسول الله محمد ﷺ: ﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ]. إنها دعوة إلى القيام لله، بعيدًا عن الهوى، والمصلحة، والتعامل مع الواقع البسيط، لا مع الدعاوى المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة، دعوة إلى منطق الفطرة بعيدًا عن الضجيج الذي يحجب صفاء الحقيقة.

وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة يعتمد على التجرد من الرواسب والمؤثرات، وعلى مراقبة الله وتقواه ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ ، مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، وفرادى مع النفس وجهًا لوجه في تمحيص هادئ عميق: ﴿ ۞ ...ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] لمحة تصور العذاب الشديد وشيكا أن يقع، ﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ] قل أيها النبي أيضا للمشركين: لم أطلب منكم أجرًا ولا عطاءً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، فما ثوابي أو أجري إلا على الله تعالى، والله مطلع على كل شيء، وعالم به، من صدقي بتبليغ الرسالة، وإعلامكم بالنبوة. وهذا أمر من الله تعالى بالتبرؤ من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أهلها والتوكل على الله في الأجر، والإقرار بأنه شاهد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك. إن ربي عالم الغيب والشهادة يصطفي للنبوة من يشاء ويرسل جبريل بالوحي إلى من يشاء من عباده(٢٩).

المشهد الثالث من قصة رسول الله محمد ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشورى] جاءت الآية تذكرنا بعظم بشارة من لبى نداء الرسل، ثم أعقبتها قضية عدم جواز أخذ المال أو أي عوض وإن قل ما يقومون به من تبليغ الرسالة حتى لا يجدوا أي حجة يتمنطقون بها. ولقد جاءت: ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ وفي ظاهرها استثناء من المبدأ الكلي حول امتناع الرسل عن أخذ المال، وكأنها نوع من أنواع العوض يطلبها الرسول ﷺ من قومه، ولكن خلاصة ما قاله العلماء في تفسير هذه الجزئية من الآية: ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ هي ما نقله إلينا سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام في تفسيره "تفسير القرآن الكريم". ["إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ " تودُّوني في نفسي لقرابتي منكم لأنه لم يكن بطن من قريش إلا بينه وبين الرسول ﷺ قرابة، أو إلا أن تودوا قرابتي، أو إلا

أن تودوني فتؤازروني كما تودون ذوي قرابتكم، أو إلا أن تتوددوا إلى الله - تعالى - وتتقربوا إليه بالعمل الصالح، أو إلا أن تودوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم][٣٠].

خامسا: تنافس الصحابة في غير الفروض العينية

عند تتبع سيرة الصحابة أثناء نزول الوحي لا نجد تلكم النقاشات والجدليات البيزنطية العقيمة والتعقيدات التي نشأت في العصور المتأخرة والمبنية على الضوابط التي وضعها المجتهدون من فقهاء الأمة حسب تقسيم الأوامر والتوجيهات الربانية والنبوية، والتي تعرضت لكثير من التقنين والتفنن في وضع معايير وقواعد تُفقِد النصوص أحيانًا المقاصد الشرعية الكبرى وتحشر فيه قدرًا كبيرًا من التنطع والفرضيات التي يضيع من خلالها رونق النصوص القرآنية والنبوية وجلالها وهيبتها في النفوس.

جيل الصحابة رضي الله عنهم تميز بالحرص المتفاني والجهد المتواصل وبذل الوسع من أجل فهم النصوص القرآنية والعمل بمقتضاها بدون تردد، وتلك الاستجابة الفورية كانت تمهيدًا للعمل والتطبيق المطلق والتقيد بتوجيهات الوحي الإلهي، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ]، وعن عطاء، عن أبي عبد الرحمن، قال: "حدثنا الذين كانوا يُقرِؤوننا: أنهم كانوا يستقرِؤون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعًا".

ففي مجال التطبيق العملي لا يختلف تفاعلهم مع القرآن ومع التوجيهات النبوية، فلننظر كنموذج إلى موقف أصحاب رسول الله ﷺ عندما نزل قول الله جل ثناؤه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران] [رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ الله لِي حَائِطٌ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ أَحَبُّ أَمْوَالِي إِلَيَّ أَفَأَتَصَدَّقُ بِهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «بَخٍ بَخٍ ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، فَقَسَّمَهَا فِي أَقَارِبِهِ، وَيُرْوَى أَنَّهُ جَعَلَهَا بَيْنَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا.

يَقُولُ أَنَس بْن مَالِكٍ: "كَانَ أَبو طَلْحَةَ الأَنْصَارِيُّ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بِيرُحَاء، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْخُلُهُ وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهِ طَيِّبٍ" قَالَ أَنَسٌ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قَالَ: قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بِيرُحَاءٍ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، وَأَرْجُو بِرَّهَا، وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: "بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ "، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ][٣١].

لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: " ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قَالَ: "جَاءَ زَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ بِفَرَسٍ يُقَالُ لَهُ: سَبَلٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا، فَقَالَ: هِيَ صَدَقَةٌ، فَقَبِلَهَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَرَأَى رَسُولُ الله ﷺ ذَاكَ فِي وَجْهِ زَيْدٍ، فَقَالَ لَهُ: " إِنَّ الله قَدْ قَبِلَهَا مِنْكَ"[٣٢]. وروي عن عمر بن عبد العزيز، أنه كان يشتري أعدالاً من السُّكَّر، ويتصدق بها. فقيل له: هلا تصدقت بثمنه؟ فقال: لأنَّ السُّكَّر أَحبّ إِليَّ، فأردت أن أتصدق مما أحب، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ في مصحف مذهب، فلما انتهت إلى هذه الآية باعته، وتصدقت بثمنه[٣٣].

وهناك أمثلة عديدة لا حصر لها تروى عن تصرفات الصحابة رضي الله عنهم وعن التابعين رحمهم الله تعالى تعبر عن قوة التأثر بهذه الآية الكريمة ومثيلاتها، وسرعة التجاوب معها حتى سعى كل واحد منهم إلى أن يتصدق بأغلى ما عنده بدون تردد أو تسويف. ولم يسأل أحد من هؤلاء نوعية البر والمقصود في حقيقته اللغوية ولم يلجؤوا إلى أي تأويل أو تفسير للبر في هذه الآية الكريمة غير ما يدل عليه ظاهرها، بل إنهم تسابقوا من أجل أن ينفقوا خير ما يملكون وأن يتصدقوا أجود أموالهم وأفضلها وأعمقها حبًّا في نفوسهم لكي يقدموه قربة إلى الله لنيل رضاه والفوز في الجنة، أما الذين لا تسعفهم الثروة ولا يملكون ما ينفقون فكان يصيبهم حزن قاتل وحسرة مرهقة بسبب فقدانهم ما يتصدقون به للوصول إلى مرتبة البر والمشاركة في السباق المحموم إلى الخيرات.

بينما نجد مختلف التفسيرات والتأويلات لكلمة البر ومعناها في الآية الكريمة في العصور المتأخرة، هل البر صدقة التطوع؟ أو الزكاة؟ أو الجنة؟ أو الثواب؟ أو الطاعة أو التقوى؟ أو غير ذلك، حتى قال بعضهم: إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة، وهذا ما لم يحصل من الصحابة عند نزول الآية أبدًا، حيث انحصر جهدهم وهمهم كله في التطبيق العملي وإنفاق أفضل الأموال للوصول إلى درجة البر، علمًا أن الصحابة هم خير فقهاء الأمة وأعمقهم للدلالات اللغوية لكلمة البر أو أية لفظة أخرى وردت في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى ذلك فهم تلامذة رسول الله ﷺ.

الخاتمـــة

في الحياة اليومية والظروف الاجتماعية والقضايا المتجددة في مجتمعاتنا فإننا نجد صعوبة كبيرة في التفريق بين التطوع والفروض الكفائية. إننا نشاهد يوميًا مآسي ومعاناة تتعرض لها مجتمعاتنا المنكوبة، وإن حاجتها الماسَّة والعوز والفقر المدقع والبطالة المذلة والمظالم الاجتماعية وما يرافقها من أمراض نفسية واجتماعية تنتج عنها القلاقل والحروب الأهلية والفوضى العارمة والتفكك العائلي في أمتنا، الأمر الذي يهدد كيان الدول واستقرارها، ومن ثمَّ فإن العقل والشرع يحتمان علينا أن نقوم بدور ما مهما صغر، فانطلاقًا من هذا يريد البعض منا أن يقدم خدمة معينة إلى المحتاجين من إخوانه في الإسلام وفي الإنسانية على حد سواء.

ولكن يواجه هؤلاء المتطوعون إشكاليات شرعية عند اتخاذ قرارات أو خطوات عملية لتقديم هذه المساعدة إذ يسألون أنفسهم قبل كل شيء: ما هو الحكم الشرعي لما يقومون به؟ وأين موقفهم مما يفعلونه من الأحكام الخمسة التي يندرج تحتها كل الأحكام الواردة في الشريعة الإسلامية ؟ فهل مواقفهم وقراراتهم حيال تلك القضايا تصب في خانة الفروض العينية، ليعرف كل واحد ألّا خيار أمامه – حسب فهمه – سوى التنفيذ، أم تدخل في إطار الفروض الكفائية (إذا قام به البعض سقط عن الباقين) ليدركوا عندها أن القيام بهذه الفروض الكفائية ضرورية وهامة، ولكنها ليست مسؤولية وواجبات تقع على أشخاصهم بصورة خاصة؟ أم تصب في مربع المندوب والتطوع والنافلة (ما تبرع به الإنسان من ذات نفسه، مما لم يلزمه فرضه)؟

فعند النظر إلى هذه المشاكل التي أشرنا إليها سلفًا فإنها لا تدخل في حيز الفروض العينية بصورة موضحة في كتب أصول الفقه حسب ما قرره الفقهاء ، وبالتالي ليسوا من ترك فعلها بآثمين ولا مذمومين من قبل الشرع في نظرهم. ومن الجانب الآخر فإن تلك القضايا المهددة لاستقرارنا لا تدخل أيضاً في حيز الفروض الكفائية المعروفة والمستقر فهمها في أذهاننا بأنها من الفروض الكفائية (دفن الموتى وإنقاذ الغرقى والجهاد في سبيل الله).

فما الحل إذًا؟ في نظرهم يبقى التنفيذ والقيام بواجبات الفروض الكفائية مرهونًا بالآخرين وهم جماهير الأمة، فكل واحد ينتظر من أن يقوم بالأمر الواجب على الأمة غيره، والمبرر هو كونه فقط فردًا من مجموع هذه الملايين، مما أدى إلى إهمال الواجبات الكفائية وأحدث ذلك نوعًا من التواكل والتكاسل لدى الجماهير الغفيرة.

والغريب في الأمر أنه لا أسئلة تثار ولا مناقشات تطرح حول هذا التعريف المقتضب الذي وضعه الفقهاء قبل مئات السنين في ظروف جد مختلفة عن التي نعيش فيها، فعلى الأقل ينبغي أن يكون هناك بعض الاستفسارات لأجزاء تعريف الفروض الكفائية مثل: (إذا قام به البعض)؟ ما هو مقياس القيام بالواجبات الكفائية ؟ وهل القيام به دفعة واحدة تخرج الأمة عن المأثم؟ وهل القيام بهذا الفرض مرة واحدة في كل زمان يكفي؟ أم نحن أمام واجبات تتجدد كتجدد الليل والنهار وكتجدد المواليد الذين يحملون معهم مشاكلهم اليومية، أليست حياتنا تواجه الكوارث الطبيعية والحروب والأزمات الاقتصادية والأمراض الفتاكة وغير ذلك والأحداث التي لا تزال تحدث بصفة دائمة أو دورية في عالمنا؟

ومَنْ هؤلاء البعض الذين يقومون بهذه الواجبات الثقيلة التي تمثل الأكثرية من الأوامر والنواهي والتوجيهات في القرآن الكريم والسنة النبوية؟ هل هم النخبة من العلماء والمثقفين والمفكرين والأغنياء من أفراد أمتنا؟ أو هم جماهير الأمة؟ أو أن هذه الفروض الكفائية تقع على الدولة وأجهزتها المتنوعة ؟ أم على رقبة مؤسسات المجتمع المدني؟ أو المسئولية تتحول إلى كل فرد من أفراد هذه الأمة كل حسب طاقته وإمكاناته وقدراته ؟ ومن الذي يحدد نوعية القائمين بالفروض الكفائية حتى ننظر ونراقب لنعرف هل يؤدون واجباتهم أو لا يؤدونها؟، فإذا تم تحديد الجهة التي تتحمل هذه المسئولية فيسهل عندها معرفة النتائج والانتقال إلى الجهة التالية ثم التي تليها لتتم محاسبتهم من قبل المجتمع ومؤسساته.

إنها أسئلة تتطلب منا أجوبة محددة تعالج الغموض وسوء الفهم الذي يسود على عقولنا ووعينا وعواطفنا مما عطّل كثيرًا من الواجبات في الساحة الإسلامية منذ فترة

طويلة، وخلق لبسًا شديدًا بين التطوع والواجبات لدى الفقهاء والعلماء قبل عوام الناس وجهالهم الذين يقلد كل واحد منهم عالمًا أو فقيهًا في حياته الدينية.

إن الباحث أراد من وراء كتابته لموضوع التطوع أن يجيب تلك الأسئلة المثارة التي تغيب عن الكثير منا، بسبب فهمنا القاصر والمشوه للعمل التطوعي، والتأكيد على أن العمل التطوعي يدخل ضمن الفروض والواجبات الكفائية التي تمثل الحيز الأكبر من التكاليف الشرعية، وما أحوجنا إلى تغيير عقليتنا ونظرتنا الدينية التي تنطلق من الاجتهادات الفقهية في عصور التخلف المتأخرة، والعودة إلى روح القرآن والسنة المطهرة وفهم الصحابة رضوان الله عليهم وتنافسهم في أعمال الخير والبر التي تدخل جميعًا في إطار العمل التطوعي لتغيير واقعنا البائس نحو الأفضل في الدارين كما يريدها الله عز وجل وكما يريده رسوله ﷺ.

الهوامـــش

(١) محمد بن يعقوب المشهور بـ "الفيروز أبادي" القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) محمد بن محمد الزبيدي ، تاج العروس في جواهر القاموس، دار الهداية.

(٣) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت.

(٥) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مصدر سابق.

(٦) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ١٩٨٦.

(٧) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مصدر سابق.

(٨) محمد التونجي، المعجم المفصل في تفسير غريب القرآن الكريم، دار الكتب العلمية،١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

(٩) عبد الرحمن بن محمد النجدي، الروض المربع، الجزء: الأول، دار المؤيد - مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، رقم الصفحة:١١٢.

(١٠) عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، مجلة الحكمة البريطانية ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.

(١١) الحسن بن الحسن الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان، الجزء الثاني، المحقق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م، ص ٣٠٠.

(١٢) أبو حامد محمد الغزالي ، المستصفى، حققه محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى، تاريخ الطباعة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م،ص ٢٣.

(١٣) نفس المصدر، ص ٢٣ .

(١٤) عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، الجزء الأول، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، تاريخ الطباعة : دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م، ص: ١٧٥.

(١٥) فخر الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء السابع، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٤٢٠هـ الطبعة الثالثة، ص: ١٥.

(١٦) محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م، ص: ١١٦.

(١٧) سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الأول، دار الشروق، الطبعة ١٧، بيروت، تاريخ الطباعة: ١٤١٢، ص:١٤٦.

(١٨) محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة ، زهرة التفاسير، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: ٤٧٨- ٤٧٩.

(١٩) أبو القاسم محمد بن محمد الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، الجزء الأول، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة الأرقم بن أبي الأرقم الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ص: ١٠٤.

(٢٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، دار الطيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، تاريخ الطباعة: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م، ص: ٤٧٢.

(٢١) أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، الجزء التاسع، المحقق: جميل صدقي محمد، دار الفكر، بيروت، تاريخ النشر: ١٤٢٠ هـ، ص: ١٥٩.

(٢٢) جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ج ١، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى، ص: ٣٨.

(٢٣) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: ٢٠١.

(٢٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام.

(٢٥) رواه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، ورواه مسلم في كتاب الفضائل.

(٢٦) ولله الحكمة البالغة في استمرار نزول القرين خلال ٢٣ سنة تقريبا مفرقًا ومنجمًا حسب الحوادث الأمر الذي سهل حفظه وفهم معانيه.

(٢٧) البخاري، كتاب العلم باب ما جاء في العلم.

(٢٨) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٦، المحقق: محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠ م، ص: ٢٨٤.

(٢٩) الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، تفسير الوسيط، الجزء الثالث، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ، ص: ٢١٦.

(٣٠) عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص: ١٤٢.

(٣١) وروى مسلم في كتاب الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام.

(٣٢) رواه البخاري في صحيحه رقم ٥٦١١، ورواه مسلم في صحيحه رقم ٩٩٨.

(٣٣) نظام الدين الحسن النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الجزء الثاني، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العربية، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦هـ، ص ٢٠٨.

المصـــادر والمراجـــع

- القرآن الكريم.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري. دار ابن كثير – دمشق بيروت،١٤٢٣ – ٢٠٠٢.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، المحقق: نظر بن محمد الفريابي أبو قتيبة، دار طيبة، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦.
- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤.
- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الأول، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، تاريخ الطباعة: ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت.
- أبو القاسم محمد بن محمد الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، الجزء الأول، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة الأرقم بن أبي الأرقم الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
- أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، الجزء الأول.
- أبو حامد محمد الغزالي ، المستصفى، حققه: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى، تاريخ الطباعة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م.
- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، الجزء التاسع، المحقق: جميل صدقي محمد، دار الفكر، بيروت، تاريخ النشر: ١٤٢٠ هـ.
- جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ج ١، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى.
- الحسن بن الحسن الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان، الجزء الثاني، المحقق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.
- حمد التونجي، المعجم المفصل في تفسير غريب القرآن الكريم، دار الكتب العلمية،١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

- الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، تفسير الوسيط، الجزء الثالث، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الأول، دار الشروق، الطبعة ١٧، بيروت، تاريخ الطباعة: ١٤١٢.
- عبد الرحمن بن محمد النجدي، الروض المربع، الجزء: الأول، دار المؤيد – مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- عبد القاهر الجرجاني، درج الدرر في تفسير الآي والسور، مجلة الحكمة البريطانية ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
- عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، الجزء الأول، المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، تاريخ الطباعة : دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م.
- فخر الرازي، مفاتيح الغيب، الجزء السابع، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٤٢٠هـ الطبعة الثالثة.
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ١٩٨٦ .
- محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة ، زهرة التفاسير، الجزء الأول، دار الفكر العربي، القاهرة.
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٦، المحقق: محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠ م.
- محمد بن محمد الزبيدي ، تاج العروس في جواهر القاموس، دار الهداية.
- محمد بن يعقوب المشهور بـ "الفيروز أبادي" القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م.
- محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- نظام الدين الحسن النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، الجزء الثاني، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العربية، الطبعة الأولى، بيروت: ١٤١٦هـ .